2- محمود درويش شاعر الوطن

بقلم الباحثة الدكتورة: علا آغا

باحثة في مجال اللغة العربية وآدابها

Ola.aga@hotmail.com

الوطن، ما هو الوطن؟ هو الشوق إلى الموت من أجل أن تعيد الحق والارض، « ليس الوطن أرضاً لكنه الارض والحق معاً ».

الحق معك والأرض معهم، وليس لنا في الحنين يد، وفي البعد كان لنا ألف يد سلام عليك، افتقدتك جداَ وعلي السلام في ما أفتقد. إنه ذلك الحب الذي لا ينتهي وذلك العطاء الذي لا ينضب، هو حب سكن بين دفتي صدر من تميته الدموع وتحييه الدماء .

هو حب محمود درويش الخالد، ذلك العاشق المتيم بحب فلسطين.

وكيف لا؟ فهي حبيبته الخالدة، التي سكنت بين دفتي صدره، هي حنينه وعشقه هي حب حياته.

فأقوال درويش في فلسطين تعتبر من أجمل ما قيل في حب الوطن تعرف ما هو الوطن؟ هو ليس سؤالا تجيب عنه وتمضي. إنه حياتك وقضيتك معا.

لقد أعاد محمود درويش إنتاج المأثورات العربية، والقومية، بما يوافق رؤيته وقوميته وحنينه، هو ابن فلسطين ولد في قرية البروة الفلسطينية في 13 آذار 1941، التي تقع في الجليل شرق ساحل عكا، وما لبث في عام 1947 أن وجد نفسه مع الكثير من الفلسطينيين الذين هجروا من أرضهم تحت دوي قنابل العدو حيث دمرت أرضهم وقراهم.

كانت رميش أول قرية لبنانية سكنها مع عائلته، ومن بعدها جزين والناعمة، وهكذا من منطقة لأخرى منتظرين العودة إلى الديار والارض، لكن العودة نحو البركة باتت مستحيلة فهي لم تعد موجودة بعد أن دمرت بالكامل من قبل الصهاينة، بعد أن حولوها إلى قرية زراعية إسرائيلية.

وعاد إلى فلسطين مع عائلته متسللين، بعد أن عبر الكثير من المخاطر.

قال درويش متحدثا» عن تلك الفترة: العودة إلى مكان الولادة لم تتحقق.

«لقد عشنا لاجئين في قرية أخرى اسمها دير الأسد في الشمال... كانت صفتنا الحاضرين...الغائبين2».

عاش في حيفا عشر سنين أنهى خلالها دراسته الثانوية وعمل محرراً في جريدة الاتحاد وكان في هذه المرحلة ممنوعاً من مغادرة منزله، أي تحت الإقامة الجبرية، واعتقل أكثر من خمس مرات ودونما محاكمة 1967،1966،1965،1961، حتى عام 1970، ثم توجه نحو الاتحاد السوفيتي لإتمام دراسته.

وكانت القاهرة محطته الثانية بعد الخروج من الوطن، حيث يقول: «الدخول إلى القاهرة كان من أهم الأحداث في حياتي الشخصية. في القاهرة ترسخ قرار خروجي من فلسطين وعدم عودتي إليها. ولم يكن هذا القرار سهلا... خامرتني هواجس ووساوس كثيرة، لكنني فتنت بكوني في مدينة عربية، أسماؤها وشوارعها عربية... وجدت نفسي أسكن النصوص الأدبية التي كنت أقرؤها وأعجب بها. فأنا أحد أبناء الثقافة المصرية والأدب المصري.

التقيت بهؤلاء الكتاب الذين كنت من قرائهم وكنت أعدهم من آبائي الروحيين.

التقيت بكبار الكتاب مثل نجيب محفوظ ، يوسف إدريس، وتوفيق الحكيم "3.

ففي القاهرة تمت ملامح تجربته الشعرية، حيث بدأ منعطفاً جديداً في حياته الأدبية.

لقد أحب العزلة وله فلسفته الخاصة بها حيث يقول: «فإنني أدمنت العزلة، ربيتها وعقدت صداقة حميمة معها. هي أحد الاختبارات الكبرى لقدرة المرء على التماسك»

4 . كانت العزلة عند درويش لا تعني «الانقطاع عن الحياة والواقع والناس».

ويعد درويش من الشعراء الذين اهتموا بالفلسفة الجمالية عبر محاولته إدخال التصوير الموسيقي للقصيدة العربية التي تُؤمن بأهميّة الواقع النّفسيّ في الفنّ، والحياة معاً، كما أنها تهتم بأكثر من جانب من خلال اهتمامها بالجانب السّياسيّ، والاجتماعيّ، والاقتصاديّ، والثّقافيّ.

ومن الملاحظ أيضاَ تنقّل شِعر درويش في عدة مراحل، فكانت بدايته الشِّعريّة من خلال طرح أفكاره، وتعبيره الشعري.

ومن ثمّ انتقل إلى مرحلة النضوج، من حيث تأثُّره بشُعراء الحركة الرّومانسيّة، فكان للحُبّ حيز واضح في شِعره، حيث ربطه ربطاً وثيقاً بقضيّة وطنه.

ومن هنا صار شعره مقدسا، فهو ثائر، صامد ضد المحتل، ومن هنا أسقط كل المعايير الأدبية وبقي معيار واحد هو الأرض، والمقاومة.

ومن أشهر القصائد التي كتبها درويش في تلك الفترة :

« سرحان يشرب القهوة في الكافتيريا».

هو عنوان قد يبدو غريباً للوهلة الأولى ، لكنه في الحقيقة يناسب حالة الفلسطيني التائه الغريب عن أرضه، هو سرحان ذلك الشاب الفلسطيني الذي اغتال روبرت كنيدي 1968، الذي كان من أقوى المرشحين للرئاسة الأميركية، ومن أشد المتحمسين لإسرائيل، حيث صرح لليهود في احد اجتماعاته قائلا : «دعوني قبل أن احدثكم اغسل فمي، لأنني شربت قهوة عربية قبل قليل» . وعندما أطلق سرحان النار عليه صرخ قائلا: فعلت هذا من أجل بلدي.

يجيئون،
أبوابها البحر، فاجأني مطر، لا إله سوى
الله
يجيئون
الله
يجيئون
فلتترجل كواكب تأتي بلا موعد.
والظهور التي استعدت للخواطر مضطرة للسقوط
وماذا حدث ؟
أنت لا تعرف اليوم، لا لون، لا صوت، لا طعم.
لا شكل... يولد سرحان، يكبر سرحان،
يشرب خمرا ويسكر. يرسم قاتله ويمزق
صورته. ثم يقتله.
ويرتاح سرحان.
سرحان! هل أنت قاتل ؟

ويصبح سرحان رمزا لشعب كامل يعاني ويشرد، ويقتل بشكل مستمر، فمن أين لسرحان أن يعرف الحب في وطن يغص بالسجون والقيود والموت والتشرد.

لقد شهدت هذه المرحلة من أشعاره الكثير من الطاقة التعبيرية، والدلالية، بالإضافة إلى الرموز و الإيداعات وبعض الأساليب الجديدة في طرح رؤيته الشعرية، حيث وظف أدوات الخطاب الشعري المعاصر في أسلوبه، صوره، ولغته وإيقاعاته، كما أسهم في تطوير الشعر العربي الحديث، حيث أتقن إدخال الرمز وبقوة إلى أشعاره، فباتت الرمزية سمة واضحة في أشعاره.

تكبر....تكبر !
فمهما يكن من جفاك
ستبقى، بعيني ولحمي، ملاك
وتبقى ، كما شاء لي حبنا أن أراك .
هنا يخاطب درويش وطنه وكأنه محبوبته التي تتكبر عليه.
هذه الرموز أضفت الكثير الكثير من جاذبية ممتعة لأشعاره وكتاباته.
ومن أجمل قصائده قصيدة :
« تنسى كأنك لم تكن» :
أنا للطريق... هناك من سبقت
خطاه خطاي
من أملى رؤاه على رؤاي، هناك
من نثر الكلام على سجيته ليدخل في الحكاية
أو يضيء لمن سيأتي بعده
أثرا غنائيا... وحدسا
تنسى ، كأنك لم تكن.
قصيدة «صلاة أخيرة»:
يخيل لي أن عمري قصير
وأني على الأرض سائح
وأن صديقة قلبي الكسير
تخون إذا غبت عنها
وتشرب خمرا لغيري،
لأني على الأرض سائح !
قصيدة «عن إنسان» :
ووضعوا على فمه السلاسل
ربطوا يديه بصخرة الموتى
وقالوا : أنت قاتل !
أخذوا طعامه والملابس والبيارق
ورموه في زنزانة الموتى

وقالوا : أنت سارق !
طردوه من كل المرافئ
أخذوا حبيبته الصغيرة
ثم قالوا : أنت لاجئ.

وتعدُ قصيدة «أحنُ إلى خبز أمي» من أجمل ما قيلَ في الأم، فلكلمات القصيدة قدسيةٌ خاصة تشبهُ قدسية الأم، وتعدّ نشيدَ حنانٍ يقصده كل مشتاقٍ لأمه.

أحن إلى خبز أمي
وقهوة أمي
ولمسة أمي
وتكبر في الطفولة
يوما على صدر يوم
وأعشق عمري لأني
إذا متّ،
أخجل من دمع أمي!
خذيني، إذا عدت يوما
وشاحا لهدبك
وغطّي عظامي بعشب
تعمّد من طهر كعبك
وشدّي وثاقي..
بخصلة شعر
بخيط يلوّح في ذيل ثوبك.

وبقيت فلسطين بحضارتها ومعاناة أهلها أبرز إبداعات الشاعر،
هي الأرض الخصبة المقاومة، هي إرث خالد من البطولات، وسجل ناصع للشهادة.
كما في قوله:

لك عندي كلمهْ
لم أقلها لك بعد
فالظل على الشرفة يحتل القمرْ
وبلادي ملحمة

كنت فيها عازفاً... صوت وترْ!

تتميّز قصائد محمود درويش باحتوائها على الدّلالات الكثيفة والمُبهمة، التي لا يفهم معناها والمُراد منها إلّا بعد التّمحيص في معانيها، كما اهتم بالبنية الخارجيّة تحت مظلّة «المعنى والمبنى»، ثمّ «المعنى، والمعنى المُراد من المعنى»؛ لأنّ درويش كان يبتعد كلّ البعد عن إظهار المُفردات إظهاراً تسهل معه معرفته.

كما في قوله:

وإذا استرسلت في الذكرى!
نما في جبهتي عشب الندم
وتحسرت على شيء بعيدْ
وإذا استسلمت للشوق،
تَبَنَّيتُ أساطير العبيد
وأنا آثرت أن أجعل من صوتي حصاة
ومن الصخر نغم!
عيونكِ شوكة في القلبِ
توجعني.. وأعبدُها
وأحميها من الريحِ
وأغمدها وراء الليلِ والأوجاعِ.. أُغمدها
فيشعل جُرحُها ضوء المصابيحِ
ويجعل حاضري غدُها
أعزّ عليّ من روحي
وأنسى، بعد حين، في لقاء العين بالعين.

هكذا فهم محمود درويش العلاقة بفلسطين اتّحادا كاملا بالتراب وحبّا لا ينضب لوطن، كما في قوله:

وطني! يا أيها النسرُ الذي يغمد منقار اللهبْ
في عيوني،
أين تاريخ العرب؟
كلّ ما أملكه في حضرة الموت:
جبين وغضب.

وأنا أوصيت أن يزرع قلبي شجرة
وجبيني منزلاً للقبَّرة
وطني، إنّا ولدنا وكبرنا بجراحك
وأكلنا شجر البلوط..
وخص القدس بالكثير من حنينه وحبه وشوقه :
هنا القدس
ستعودون إلى القدس قريباً
وقريباً تكبرون
وقريباً تحصدون القمح من ذاكرة الماضي
قريباً يصبح الدمع سنابل
وأبقى؟
خُلقتَ هنا.. وننامُ هناك
مدينة لا تنام وأسماؤها لا تدوم، بيوت تغيّر
سكانها والنجوم حصى
ستعودون إلى القدس قريباً.

عاش درويش قصة حب لم يكتب لها النجاح وهو في السادسة عشرة من عمره. هي قصة حب غير متكافئة، فمحبوبته ريتا كانت فتاة إسرائيلية ولدت في حيفا، وعملت أستاذة للأدب بجامعة تل أبيب.

أنهت نكسة حزيران الحكاية وأيقظت لديهما هويتهما لينحاز كل منهما إليها، فاختار درويش شعبه وقضيته، وأهله، بينما اختارت ريتا الانضمام إلى سلاح الطيران الإسرائيلي.

فكتب درويش قصيدة «ريتا والبندقية»، والتي يقول فيها:

وأنا قبلت ريتا عندما كانت صغيرة
وأنا أذكر كيف التصقت بي
وغطت ساعدي أحلى ضفيرة
وأنا أذكر ريتا
مثلما يذكر عصفور غديره
آه... ريتا
بيننا مليون عصفور وصورة

أطلقت نارًا عليها... بندقية

حصد درويش الكثير من الجوائز العربية والعالمية نذكر بعضاً منها :

1: جائزة لوتس (اتحاد كتاب آسيا وإفريقيا) في الهند عام 1969.

2: جائزة البحر المتوسط، المركز الثقافي المتوسط (باليرمو)، ايطاليا.

3: درع الثورة الفلسطينية، منظمة التحرير الفلسطينية عام 1981

4:جائزة أبي علي بن سينا الدولية في الاتحاد السوفييتي عام1981.

5: لوحة أوروبا للشعر في ايطاليا عام 1982.

6: جائزة لينين، من قبل الاتحاد السوفييتي في الاتحاد السوفييتي عام 1983.

7: جائزة شعراء من اجل السلام، من قبل مجلس بلدي فيلا ديمادوف، في ايطاليا عام 1987.

8: شهادة تقدير من جامعة التشيلي، مركز الدراسات العربية بجامعة تشيلي، مدينة سنتياغوفي تشيلي عام 1990.

9: وسام الاستحقاق الوطني الفرنسي من قبل وزارة الثقافة الفرنسية برتبة فارس، في فرنسا عام 1997.

10: جائزة الآداب من وزارة الثقافة الفرنسية، في فرنسا عام 1997.

11: الصنف الأول من وسام الاستحقاق الثقافي تونس، يقدم من قبل الحكومة التونسية، في تونس عام 1998.

وقد رشح درويش لجائزة نوبل أكثر من مرة، لكن الملابسات السياسية جعلته بعيداً عن نيلها وخاصة بعد أن كتب قصيدته "عابرون في كلام عابر"، فإسرائيل لم تسكت عن هذه القصيدة لما لها من معان وأهداف وثورة ضد إسرائيل. فما كان من القيمين على هذه الجائزة إلا أن قاموا بحجبها عنه سيما أن حصوله عليها يعني اعترافاً صريحا بفلسطين والقضية.

أجمل ما جاء فيها :

« أيها المارُّون بين الكلمات العابرة»

آن أن تنصرفوا

وتقيموا أينما شئتم ولكن لا تقيموا بيننا

آن أن تنصرفوا

ولتموتوا أينما شئتم ولكن لا تموتوا بيننا

فلنا في أرضِنا ما نعمل
ولنا الماضي هنا
ولنا صوت الحياة الأول
ولنا الحاضر، والحاضر، والمستقبل
ولنا الدنيا هنا... والآخرة
فاخرجوا من أرضنا
من برنا... من بحرنا
مِن قمحنا... مِن ملحنا... مِن جرحنا
من كل شيء، واخرجوا
من مفردات الذاكرة.

رحل درويش، وبرحيله فقدت فلسطين أحد أبنائها البررة، ومحاميها، وضوئها اللامع في سماء الشعر الحر، فقد انتصر الموت على زلزال شعر لطالما ثار مع الإنسانية ضد الظلم والاضطهاد.

إذ وافته المنيّة أثناء مُكوثه في الولايات المُتّحدة الأمريكيّة في التّاسع من شهر آب لعام 2008م، ودُفن بعد نقل جُثمانه إلى رام الله، وقد شهِدت جنازته آلافٌ من أبناء الشّعب الفلسطينيّ.

المصادر والمراجع :

1: أقوال محمود درويش، آية أحمد زقزوق، المرسال.
2: السيرة الذاتية، محمود درويش .
3: محمود درويش في حوار شامل حول الشعر والحداثة، حاوره عبده وزان، جريدة الحياة اللندنية، 14/12/ 2005 .
4: المصدر نفسه.
5: مؤسسة محمود درويش، رام الله.